

العَرَبُ وَالْعَرِبَةُ : حَيْثُ لَا تُقْعَدُ

إِنْسَادُ مُحَمَّدٍ حَيْلَةَ بِرَاحَةِ
لِبَنَانَ

القرن الرابع للميلاد ، والتدمريين (سوريا) سنة 106 ق. م. والإباجرة في الرها سنة 32 ق. م. وقد عاصر أشهر ملوكهم أبجر الخامس السيد المسيح ، والإيطوريين في القرن الثاني ق. م. وكانت عاصمتهم مجده عنجر (لبنان) وقد استمر حكمهم حتى نهاية القرن الأول للميلاد .

وكانت للعرب دولة أخرى في حصن أشار إليها جرجس زيدان في كتابه « العرب قبل الإسلام »، حيث قال : « لما قدم بومبيوس على مصر في القرن الأول ق. م. كانت حمص في حوزة دولة عربية »، وقد أقرها على ما كانت عليه . والتنقيب الذي قام به الأب لامنس اليسوعي سنة 1900 في حصن كشف عن عدد من قبور أمراً، هذه الدولة تعود إلى القرن الثاني للميلاد . مما يشير إلى طول مدة حكمها .

وأما في العهد الروماني ، فبالإضافة إلى دولة حمص العربية ، فقد أقام التخريجيون أمارة أخرى في مشارف الشام خلفهم عليها زملاؤهم بنو سليم من قضاة باسم الضجاعمة ، بينما ملك عرب الصفا حوران وما يليها ، واستولى غيرهم على ديار بكر وديار ربيعة (تركيا) . وكانت هذه البلاد تحمل أسماء أخرى فقلبت عليها من بعد أسماء القبائل العربية التي سيطرت عليها .

ثم خلف هؤلاً، وأولئك في عهد البيزنطيين أمراً، عرب آخرون ، وأشهرهم آل غسان في بلاد الشام ، آل لخم في العراق . وفي العروب المتصلة التي كانت تدور وقتنذ بين البيزنطيين وبين الفرس كان آل غسان أنصاراً للروم بينما كان آل لخم أنصاراً للساسانيين . وهذا ما أوحى إلى الكونت سفورزا الإيطالي بأن يقول في كتاب له عن العرب صدر سنة 1938 : « لو سألت الامبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية)

يتوهم سواد الناس أن العرب قبل الإسلام كانوا يقيمون في شبه جزيرتهم فحسب ، وإن هؤلاً ما كانوا يعتقدون الإسلام حتى اكتسحوا العالم لأول مرة ، وزودوه بحضارة ذاهنة . والواقع أن ثيبة العرب الإسلامية وإن كانت أعظم ثيبة لهم إلا أنها لم تكن الأولى من نوعها ، وإن شبه جزيرة العرب وإن كانت مهد القحطانيين والعنانيين إلا أنها لم تكن موطن العرب الوحيد .

فمنذ آلاف السنين حتى ظهور الإسلام كان للعرب موجات صادرة عن مهدهم رافقتها وثبات وحضارات اندثرت قبل عبد الجahليّة وخلفت في بلاد الشام والعراق ومصر وغيرها بقايا كثيرة من العرب ومن لغتهم ، هذا فضلاً عما كان لهم من فتوحات ومدنية يمنية .

فالتنقيبات الأثرية التي أجريت بفلسطين أكدت صحة ما قاله روبيتسن في كتابه (تاريخ إسرائيل) وهو « إن العرب جاؤوا بلاد الشام موجات متتابعة منذ ثلاثة آلاف سنة من ولادة السيد المسيح ». وكانتوا في داخلها يعرفون بالعموريين ، وفي ساحلها بالكنعانيين .

وقد ورد ذكرهم باسمهم الصريح في رقمي أصدره شلمتاسير الأشوري لمناسبة حملته على دمشق سنة 854 ق. م. وكذلك في تاريخ الاسكندر المقدوني الكبير الذي كتبه لاريانوس حيث قال :

« إن الاسكندر ابن محاصيرته لمدينة صور سنة 328 ق. م رغب في الترفية عن نفسه فتوغل في طلب الصيد ، ووجد نفسه بين قوم من العرب . »

هذا بالإضافة إلى أن التوراة أتت كثيراً على ذكر العرب ، وأن التاريخ حافل بذلك دول عربية ذات شأن قبل المسيح ، كالأنباط في بطراء (الأردن) قبيل

وزا، النهر ، تلك البلاد التي اجتازها في طريقه الى الصيف واصفاً أحوال كل من قبائلها وأديانهم وعاداتهم ومحدوداً عدد الأيام التي قضاماً في اجتياز ربوعها . فتحدث عن الخرقاء ، فالطخطخان ، فالبيجا ، فالبحناك فالجكل ، فالبفراج . وقال عن هؤلاء : «ولهم ملك عظيم الشأن يذكر أنه علوى ، وأنه من ولد يحيى بن زيد . وعنده مصحف مذهب على ظهره أبيات شعر رثى بها زيد . وهم يعبدون ذلك المصحف . وزيد عندهم ملك العرب ، وعلى بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، عندهم الله العرب . لا يملكون عليهم أحداً إلا من ولد ذلك العلوى البفراجي المشار اليه » .

ومضى بعد ذلك يتحدث عن انتقالهم ، هو وصحبه ، من بلاد البفراج الى منازل قبائل التبت فالغز فالتفزع فالخرخيز فالخزبج هؤلاء .

ثم يواли حديثه عن القبائل الأخرى التي زارها بعد الخزعلي المذكورين ابتداءً من الخطاطيج التي يصف شدتها في المحافظة على الاعراض الى أن يقول وهو بيت القصيدة في هذا القال :

« ثم انتهينا الى موضع يقال له القليب . فيه بوادي عرب من تخلف عن تبع لما غزا بلاد الصين . لهم مصايف ومشاتي في مياه ورمال . يتكلمون بالعربية القديمة لا يعرفون غيرها ، ويكتبون بالعمرية ، ولا يعرفون قلمنا . يعبدون الاصنام وملكتهم من أهل بيته منهم لا يخرجون الملك من أهل ذلك البيت . ولهم أحكام وحظر الزنا والفسق . ولهم شراب جيد من التمر . وملكتهم يهادي ملك الصين . فسرنا فيهم شهراً في خوف و Trevor . ثم انتهينا الى مقام الباب . وهو بلد في الرمل تكون فيه حجة الملك . وهو ملك الصين . ومنه يستأذن لمن يزيد دخول بلد الصين من قبائل الترك وغيرهم » .

وينهي صاحب الرحلة حديثه بالوصول الى مدينة سندابيل التي قال عنها بأنها قبة الصين ، وهو يزيد بذلك العاصمة وبعد أن وصفها قال :

« فدخلت على ملكتهم فوجدهم فائقاً في فنه ، كاملاً في رأيه ، فخطبهم الرسل بما جاؤوا به من تزويعه ابنته من نوح بن نصر ، فأجابهم الى ذلك ، وأحسن الى والي الرسل . وأقمنا في ضيافته حتى نجزت أمور المرأة ، وتم ما جهزها به . ثم سلمها الى مائتى خادم وتلاتمائة جارية من خواصن خدمه وجواريه . وحملت الى خراسان : الى نوح بن نصر فتزوج بها » .

لعلمت أنها كانت تسيطر على سوريا على اعتبار أنها نظر عربي يتولاه أمراء العرب الذين كانوا وشعبهم يؤلفون الكثرة بين السكان » ، وكانت مصر عرضة ايضاً لموجات أخرى من جزيرة العرب : فقبل 2280 سنة من الميلاد حكم فيها الپیکسوس المعروف بالملوك الراعة مدة 600 عام تقريباً . ومنذ ذلك حفلت بالعنصر العربي كما بيناه في كتابنا « العروبة والشعوبيات » .

وقد ظهر الاسلام في ذلك العهد فكان وجود العرب في بلاد الشام وفي العراق ومصر في عداد الاسباب التي أمنت له هناك ذلك الفوز الباهر - الفوز الذي كان منطلقاً لانتصاراته في البلاد الأخرى ، ولنشر لغة القرآن . ثم دالت دولة العرب ، ولكن لفهم ظلت منتشرة في البلاد الواسعة التي انتشر فيها دينهم ، وكذلك ظلت مفرداتها واصطلاحاتها موجودة في لغات العالم الذي دان للتمدن العربي خلال ثلاثة أجيال تبتدئ بالقرن الثامن الهجري ، وتنتهي في ختام القرن العاشر . وهذه أمور وان خفيت على سواد الناس الا ان الوانها لا تخفي على المثقفين ، ولكن الذي يعتبر في حكم المجهول عند الكثرة ، الا ما ندر ، هو ذلك الذي عثرنا عليه في ثنياً التاريخ من وجود شراذم من العرب في بلاد كثيرة ، لا يتوقع أحد أن يسمع فيها اللغة العربية ، أو أن يرى فيها العنصر العربي .

فيما يلي المحموي المتوفى سنة 626 هـ وصاحب كتاب « معجم البلدان » ذكر في سياق حديثه عن الصين نقلاً عن مخطوط وصفه بأنه عتيق الله أبو دلف مسرع ابن المهلل ما شاهده أبو دلف خلال رحلته الى بلاد الترك والصين والهند ، فذكر انه عثر على قوم من العرب في تلك الرحلة هم من بقايا الفاتحين . وقد استهل كلامه في أسباب الرحلة بما يلي :

« ولما نبا بي وطني ، ووصل بي السير الى خراسان ضارباً في الارض ابصرت ملكتها والمرسم بamarتها نصر ابن أحمد الساماني عظيم الشأن ، كبير السلطان ، يستصغر في جنبه أهل الطول ، وتخف عنده موازيين ذوى القدرة والحول ، ووجدت عنده رسول قالين بن الشخير ملك الصين راغبين في مصادرته ، طامعين في مخاطبته ، يخطبون اليه ابنته ، فأبى ذلك واستنكر لحظر الشريعة له . فلما أبى ذلك راضوه على أن يزوج بعض ولده بابنته ملك الصين فأجاب الى ذلك ، فافتتحت بقصد الصين معهم » .

ثم شرع يتحدث عن رحلته في بلاد الترك فيما

عزلتها ، وحبب الى السفر الى تلك الديار لرؤيتها ، ولدراسة احوالها .

وهناك فئة أخرى من الاخوان المجهولين غير الاسيوبيين الذين تحدثنا عنهم كانوا يعيشون حتى العجيل الماضي في أمريكا . ورد ذكرهم في كتاب « صنفوة الاعتيار بمستودع الامصار والاقطار » للشيخ محمد بيرم التونسي المتوفى سنة 1889 م . وقد قال عنهم في سياق كلامه عن البرازيل :

« يوجد فيها آلاف من المسلمين أصلهم من سودان افريقية ، ولكنهم لا يعلمون الا كليات الديانة على سبيل الاجمال . كما يستفاد ذلك من رحلة عبد الرحمن بن عبد الله البغدادي الذي كان اماما في بعض السفن المدرعة العثمانية ، وسافرت الى البصرة على طريق البحر المتوسط الغربي (قبل فتح قناة السويس) على بواخر (جبل طارق) ، وصادفهم زوابع اضطربتهم ، عن غير قصد ، الى شطوط البرازيل . وما خرجوا الى التفسخ في البر أقبل عليهم أقوام مسلمون ، وطلبوا ابقاء الامام عندهم لتعليم الديانة . فبقي هناك مدة . وألف رحلته المختصرة المترجمة الى التركى المسماة « مسلية الغريب » وكان سفره سنة 1282 هجرية . ولا يبعد أن يكون في جميع أمريكا أمم كثيرة من المسلمين لا يجدون من يعيدهم . ولا حيل ولا قوة الا بالله » .

لقد طاب لنا ان نتحدث عن اخوان لنا كانوا يسكنون في بلاد لم نكن نتوقع أن يكون لنا فيها اخوان ، ولكن الذي يؤلمنا أن هؤلاء الذين عثروا عليهم في طيات التاريخ ، والذين كنا نتساءل عن مصيرهم بحرارة قد خسرناهم في القارات الامريكيتين ، وربما خسرنا أيضا غيرهم في آسيا وافريقيا ، وأما الباقيون في تركستان فهم عرضة لاختصار جسام لا تنسفهم لغتهم لغة القرآن فحسب ، بل قد تنسفهم القرآن نفسه .

وقد عاد صاحب الرحلة الى خراسان مع موكب العروس في طريق آخر بين ما شاهده ، ولكننا أغفلنا ذكر العودة لأنها لا تدخل في موضوع هذا المقال .

وأتت على هذه الرحلة بضعة قررون ، واتى على قراءتي لها حين من الدهر كنت أسأله فيه عما اذا كان العرب المذكورون المجاورون للصين لا يزالون باقين على عروبتهم حتى اذا كانت سنة 1956 م سمعت محاضرة القاما المستشرق الروسي تسترلي باللغة العربية في بيروت وذلك خلال شهر تيسان ، فإذا به يذكر خبرا آخر من هذا القبيل حينما قال :

« وفي آسيا الوسطى بلدة يسكنها ثلاثة عشر الف نسمة لا يزالون يتكلمون اللغة العربية . ويرجح أنهم من أصل عربي » .

ثم قرأت في مجلة الانباء السوفيتية في عددها الخامس الصادر في 26/1/1958 نبذة مماثلة لهذا نصه : « إن مائة عائلة عربية تعطن حاضرة دجاغواري القديمة القرية من مدينة بخارى في اوزبكستان . وان الوثائق تثبت أن هؤلا العرب أقاموا هناك منذ أكثر من ألف سنة » .

ولقد علقت المجلة على هذا الخبر بقولها : « لقد أصبح لهؤلاء العرب نواب في السوفيات الاعلى « لجمهورية اوزبكستان ، وأعضاء في مجالسها المحلية » . فهمنا كان العرب الحميريون الذين زارهم أبو دلف مسمر غير هؤلاء أو هؤلاء الذين نوه بهم الروس ؟ لا ندري .

وقد أخبرنى الشاعر الشهير الاستاذ أحمد صافى النجفي أنه في سفره من الخليج العربي الى مدينة شيراز في جنوب ايران عثر في بواديها على قبائل عربية لا تزال تحافظ على لغتها وتقاليدها على الرغم من